

تصدير

عندما رأيت صور التعذيب في ”أبي غريب“، عجزت مثل كثيرين غيري عن التخلص من مزيج الفزع والانبهار الشديد، الذي جذبني إلى تلك الصور. ففيها بنات كالأثني رأيتهن ينشأن في مناطق إيداهو ومونتانا الريفية. وربما نشأت تلك الفتيات مثلي وسط الغابات، يأكلن من صيد آبائهن، ويتعلمن الطهي من أمهاتهن. وبعضهن كما قيل عنهن: كن يحملن مثلي أن يكن مدرسات عندما يكبرن، (أذكر أنني رفضت منحة دراسية من ROTC، كانت تتيح لي حضور إحدى كليات اتحاد آيفي، وفضلت عليها المدرسة اليسوعية المحلية، جزئياً لأنني لم أستطع أن أقبل فكرة الحرب... أو أن أرثدي ذلك الزي الموحد القبيح)، ولكن هؤلاء الفتيات مختلفات، فقد التحق أغلبهن بالجيش أملاً في تحقيق أحلامهن، فهل كنت مع هؤلاء الفتيات من مناطق بنسلفانيا ووست فيرجينيا الريفية؟ أم أنني رأيت في حياتهن الطريق الذي تركته... وذلك بفضل رعاية الله؟ لم أكن أتخيل أن أفعل ما فعلن، ولكن هل كن يتخيلن ما فعلنه عندما التحقن بالجيش؟

إنني أفكر أيضاً في طالباتي بجامعة وست فيرجينيا، (حيث كان أول عمل تدريسي بدوام كامل لي)، فكثير منهن كن أول جيل في عائلاتهن يلتحقن بالجامعة؛ لأنهن بنات عمال المناجم يحملن بحياة أفضل، كُنَّ بنات يطلبن معرفة العلاقة بين الفلسفة ومرض الرئة السوداء الذي أصاب آباءهن. أخذت أسأل نفسي: من هؤلاء الفتيات في ”أبي غريب“، الفتيات القادرات على هذا اللون من العنف؟ لكن لم يكن العنف ما يطارد أفكارني، بل كان المرح الذي على وجوههن، فقد كُنَّ سعيدات جداً، كُنَّ في حالة مرح حتى بدون شديداً

البراءة. فلماذا كان هؤلاء الفتيات يستمتعن بإيذاء غيرهن؟ وكيف يجدن لذة في العنف؟ بدأت أفكر في مساهمتنا في الاستثمار في العنف، وفي اللذة التي نستمدّها من مشاهدته، لا سيما في الأفلام. وكلما تعمقت في الموضوع زاد إدراكي أننا كثافة لا يقتصر تلذذنا بالعنف على جانبه الخيالي في الأفلام، بل إننا نستمتع بالعنف الحقيقي. إننا مهووسون بالعنف الحقيقي، بتلفزيون الحياة، الذي يكشف لنا بالتفاصيل المثيرة إلى حد الدموية، العنف الجسدي والعاطفي الذي يمارسه الناس بعضهم على بعض، وقد اكتشف مؤخرًا أن بعض الناس يعمدون إلى التفتيش في شبكة الإنترنت عن صور الهجمات على الجنود الأمريكيين في العراق؛ لأنهم «يحبون مشاهدة انفجار الأشياء» (Wyatt 2006). واكتشفت أن صور «أبي غريب» تحولت إلى أيقونات لبعض مواقع الإنترنت الإباحية. فكيف تحولت المشاهد العنيفة إلى ترويح بريء؟

كيف استطاعت البنات في «أبي غريب» هتك عرض الرجال؟ هذا هو الجزء الغريب في المعادلة - بنات يهتكن عرض رجال. كان المؤلف أن نسمع عن رجال يهتكون عرض النساء، ولكن يبدو أن الأوضاع تتقلب. أمامنا الآن خلطة معقدة من العنف العنصري والجنسي، موجّهة إلى الرجال - «المحتجزين» العراقيين الذين يُعاملون كالكلاب. دفعتني صورة الرجل المربوط بحزام الكلب، وما قرأت عن أن الحراس كانوا مأمورين بأن يعاملوا السجناء كالكلاب، إلى أن أسأل: «ومن يعامل الكلاب بهذه الطريقة؟» (كنت في ذلك الوقت أكتب كتابًا عن مجازات الحيوانات والحيوانية - وقد تركته مؤقتًا لأكتب الكتاب الحالي). كما أن الطبيعة الجنسية للصور جعلتها إباحية من لون غريب. ومرة أخرى ارتبكت: نساء يفتصبن ويهتكن عرض رجال؟ أليس العكس هو المعتاد؟ بدأت أشك في سر اهتمامي بالصور. عمّا كنت أبحث وأنا أقلّب صفحات مجلة «ذا نيووركر» أو الطباعات الخاصة من مجلة «تايم»؟

ماذا في تلك الصور يجعلها أسرة إلى هذا الحد؟ ولكني لم أكن وحدي من التقطت عينها تلك الصور، فقد جذبت الاهتمام العام، وتحولت إلى أخبار رئيسة في كل وسائل الإعلام الكبرى، ولا يزال أثرها موجودًا في المناظرات التي تدور حول سلطات الرئيس وتعريف أساليب الاستجاب المناسبة مقابل التعذيب.

كان مشهد الرجل عليه رداء أسود بغطاء رأس، وهو يقف على صندوق مآدًا ذراعيه مصممًا تصميمًا دقيقًا صادمًا، أظن أنه نموذج لفن التصوير الفوتوغرافي. وبدأت أتساءل عن الفرق بين تلك الصور، التي تمثل أشكالًا من العنف والتمثيلات الفنية للعنف. وحتى الصور التي لم تكن فيها الفتيات المبتسمات بدت مألوفة بعض الشيء بالنسبة لي - ومصدر الألفة هن ليس كتب صور الخريجين السنوية أو بطاقات المعايدة المصورة، بل الفن المعاصر. ولقد سمعت مؤخرًا أن بعض هذه الصور أدخلت في أعمال فنية هدفها الاحتجاج على الحرب. كان عليّ أن أذكر نفسي مرارًا بأنها صور من الحياة الحقيقية، صور من الحرب. كان ذلك جزءًا من مشكلتي، لم تكن تلك الصور تشبه غيرها من صور الحرب التي رأيتها، بل كانت صور حرب بها نساء مبتسمات، ورجال في أوضاع جنسية، وبنات يرفعن إبهامهن سعادةً ورضًا. لهذه الصور ألفة من سياقات أخرى غير الحرب. بدأت أتساءل عن طبيعة هذه الحرب التي جعلت صور "أبي غريب" آخر صيحة في التصوير الحربي. أما الصلات بين النساء والجنس والحرب التي أوحث بها هذه الصور، فهي التي جعلتني أفكر في الصلة بين الجنس والعنف بوجه عام.

وفي الوقت نفسه تقريبًا الذي بدأت أفكر فيه في النساء الضالعات في أحداث هتك العرض في "أبي غريب"، بدأت ألاحظ تقارير عن الفدائيات

الفلسطينيات، ومرة أخرى بدأت الأغلفة اللامعة للمجلات الإخبارية واسعة الانتشار تجذب انتباهي. ومرة أخرى أدهشتني تلك النساء العنيفات. ومع ذلك سرعان ما جذبني التغطية الإعلامية لهن. لماذا تظهر تلك النساء على أغلفة المجلات؟ ولماذا تتصدر أخبارهن الصحف؟ وهل انتهاكات ”أبي غريب“ ستحدث الصدمة نفسها لو كان الحراس جميعاً من الرجال؟ فإننا لا نرى صور الفدائيين من الرجال على أغلفة المجلات ينظرون جميعاً إلينا بعيون بنية حزينة. بدأت أشك في أن المخيلة العامة ترى عنف النساء أشد جاذبية، وأكثر لفتاً للنظر، وأبعد عن التوقع من عنف الرجال، فالرجال يخوضون الحروب دائماً... أما أن تكون النساء محاربات، أليس هذا شيئاً جديداً؟ وسرعان ما وجدت نسقاً متكرراً في الوصف الإعلامي لتلك النساء المحاربات، إذ يشار إليهن على نحو متكرر ومتسق بوصفهن أسلحة - لسن جنديات يحملن أسلحة، أو متطرفات معهن قتابل، بل إن الجسد الأنثوي نفسه في حضوره وأصل وجوده يشار إليه بوصفه سلاحاً.

عندما بدأت أكتب الفصل الأول في هذا الكتاب عن تصوير النساء كأسلحة في الإعلام، جذبني مرة أخرى تقرير إخباري أربكني: لقي صبي في الثامنة من عمره حتفه وهو يلعب ما سماه التقرير ”لعبة الشنق“. وقد أدهشني أن أعرف أن الاختناق كان من أشكال الترفيه المنتشرة بين الصغار والمراهقين. وبدأت ألاحظ مقالات أخرى عن صغار ماتوا وهم يلعبون ”لعبة الاختناق“ أو ”لعبة الشنق“، التي انتشرت فيما يبدو أكثر من ذي قبل بسبب الإنترنت. وظهرت لي بعد ذلك مقالات صحفية عن ”الجرح“ وغيره من أشكال إيذاء الذات المنتشرة بين المراهقين. سألت نفسي: لماذا يؤدي هذا العدد الكبير من المراهقين أنفسهم حتى يشعروا، كما تقول التقارير،

”بالانطلاق“، أو بأنهم ”أحياء“... كانوا يجرحون أنفسهم ليشعروا بالحرية، وكانوا يقتلون أنفسهم ليشعروا بأنهم ”أحياء“. مرة أخرى، بدأت أسأل عن نوع الثقافة التي تخرج شباباً يؤذون أنفسهم وغيرهم بالعنف باسم الحرية أو الحياة... أو ”لمجرد المرح“. هؤلاء هم الصغار الذين نقابلهم كل يوم، فهم طلابي وأبناء أصدقائي وربما من عائلتي.

لقد كتبت هذا الكتاب لأفهم لماذا يرتكب الشباب الأمريكي أعمال العنف المميتة. ولقد ركزت هنا على العنف في الحرب، ولا سيما تمثيلات عنف النساء وارتباطه بالصور النمطية للعلاقة بين الجنس والعنف عمومًا. ويتناول هذا التحليل موضوع ”الجرح“ و”لعبة الشنق“، وغيرهما من أشكال العنف الموجّه ضد الآخرين، بوصفها أعراضًا لثقافة العنف، التي بدورها نتيجة لتقييد خيارات التعبير عن العواطف، ولا سيما العواطف العنيفة.

كيللي ناشفيل، تنيسي



شكر وتقدير

أودُّ أن أشكر وندي لوكنر محررة كتبي في مطبعة جامعة كولومبيا، فقد كان حماسها سندًا لي في رحلة المراجعات الطويلة لهذا المشروع. كما أشكر إدواردو منديتا وسينثيا ويلييت، ومعهما ناقداً لا أعرف اسمه، يعمل لدى مطبعة جامعة كولومبيا، على تعليقاتهم المفيدة للغاية، واقتراحاتهم التي أبدوها على صورة سابقة للكتاب. والشكر واجب كذلك للجمهور بجامعة دي بول في شيكاغو، حيث عرضت صورة مختلفة تمامًا من الفصل الأخير. وإنني لأدين بالفضل لزملائي بجامعة فانديلت لتعليقاتهم وأسئلتهم التي طرحوها بعد أن عرضت صورة سابقة للفصل الأول. وأقدم شكرًا خاصًا إلى كولن (جوان) ديان وكاترين جاينز وديفيد وود على اقتراحاتهم. وإنني لمدينة أبدًا لأسرتي بالدعم والتشجيع. وأقدم أعمق امتناني إلى بينيتو تريجو لأحاديثنا المتواصلة التي غدَّت هذا المشروع. كما أعبّر عن خالص تقديري لصحبته في طريق الحياة الصخري المتعرج.



مقدمة

الجنس والمخدرات والروك أند رول

ليست هذه الحرب كغيرها في كونها بلا جبهة قتال، والنساء فيها مشتركات في المعارك مع الرجال. صحيح أن الجنديات لا يُسَمَّح لهن، من الناحية الفنية، بالوجود في الخطوط الأمامية، ولكنهن يشاهدن العمليات طوال الوقت فيقتلن ويُقتلن. إن النقص في الأفراد العسكريين يؤدي إلى توسيع القواعد المتعلقة بالنساء في القوات المقاتلة الأرضية، والشعب الأمريكي لم يعد تصدمه فكرة موت النساء في الحرب، حسبما تؤكد التقارير. ولم يعد الاهتمام بالقتلى من النساء يتجاوز الاهتمام بالقتلى من الرجال⁽¹⁾، بل إن اشتراك النساء في الوحدات المتكاملة لا يكاد يلاحظ. والنساء في هذه الوحدات تسعى إلى تهيئة أجسامهن حسب المعايير الحربية الذكورية - ف يأخذن أشكالاً أحدث من وسائل منع الحمل لإطالة المدة بين الدورات الشهرية أو منعها تماماً، وباستخدام أداة محمولة للتبول يوزعها الجيش للرحلات الطويلة (يسميهن النساء "ويناس"). تخدم النساء في الجيش وتموت، ولكن حسب كلام القبطان البحري لوري ماننج: "يحمل كثير من المحافظين مشاعر سيئة جداً تجاه تدريب الأمهات على القتل"⁽²⁾. ويتوقع بعض صناع السياسة الحربية أن الجدل سيُفتَح مرة أخرى حول مشاركة النساء في القتال، بعد انتهاء هذه الحرب مباشرة.

على الرغم من أن موت النساء في العراق لا ينال اهتمامًا كبيرًا من الإعلام أو من عموم الأمريكيين، إلا أن ضلوع النساء في المعاملة المهينة "للمحتجزين" في سجن "أبي غريب" بالعراق وسجن خليج جوانتانامو بكوبا، من الأمور شديدة الأثر التي لا تزال تلقي بظلالها على المناظرات الخاصة بشأن أساليب الاستجواب المقبولة، ومشاعر الأمريكيين تجاه هذه الحرب. كما أن الطبيعة الجنسية للإهانات يستخدمها بعض المتحاورين ليقول بضرورة استبعاد النساء من الجيش، وليقول: إن مجرد وجودهن أطلق العنان للعنف الجنسي. وعلى الرغم من أن موت الجنديات لا يلقى اهتمامًا كبيرًا، إلا أن تقارير عن الجنديات وإيذائهن المحتجزين قد استولى على خيال عموم الناس. فلماذا؟ لماذا ولدت صور النساء المعتديات في سجن "أبي غريب" ذلك القدر من المداولة الصحفية والإعلامية؟

إن كتابي هذا محاولة للإجابة عن هذا السؤال عن طريق تحليل كل من التغطية الإعلامية، والأحداث نفسها في إطار نظرة بورنوجرافية (إباحية) للجنس والعنف يتم تطبيعها من خلال وسائل الإعلام واسعة الانتشار، وهذه النظرة أو الرؤية البورنوجرافية تعني أن المنظور إليه يكون مصدر لذة، أو مشهدًا ممتعًا في ذاته، دونما اهتمام بذاتية المنظور إليهم أو أنهم في موضع مهانة. وتعزز هذه النظرة البورنوجرافية قوة الناظر وسلطته، في حين تمحو أو تحقّر قوة المنظور إليه وسلطته (3). هذه الطريقة في النظر تعمل على المستويين الحرفي والمجازي. فالجنس والعنف صارا حرفيًا مناظر "تشاهد"، وقد ارتبطا مجازيًا بمخيلتنا الثقافية، كما يثبت ذلك كون عبارة "الجنس والعنف" صارت جزءًا من مفردات حياتنا اليومية - وتعبير أفلام هوليوود: من الصعب أن نذكر كلمة دون أخرى.

يمكن القول إذن: إن هذا الكتاب - عمومًا - عن الصلة بين الجنس والعنف في الثقافة المعاصرة. وبالتحديد أكبر، هو عن تجسد هذه الصلة المتصورة في ساحة الحرب التي تدور حاليًا في الشرق الأوسط. كذلك فهو عن الدور الجوهري الذي تلعبه هذه النظرة البورنوجرافية في إشعال الحرب، وكيف استخدمت تاريخيًا، بل نشأت في سياق العنف الإمبريالي والكولونيالي (الاستعماري). وكما سنرى، فإن الاحتلال الأمريكي للعراق، يأتي ضمن سلسلة طويلة من المغامرات الإمبريالية الاستعمارية التي قام بها "الغرب" في "الشرق".

إن وضع أحداث "أبي غريب" وتغطيتها الإعلامية في السياق التاريخي للعنف الاستعماري الغربي يسمح لنا بأن نراها استمرارًا للممارسات العسكرية التي تطبع العنف، ولا سيما عندما يتعلق بالنساء والجنس. فعندما ظهرت الصور على الناس، صحبتها موجة من الغضب والاتهام. فقد عُدَّت الصور "صادمة" ومزلزلة للعقل. بعض الناس عَدُّوا أن المشكلة هي الصور نفسها، ولكن في الوقت ذاته كان ثمة شيء مألوف ألفة غريبة يتعلق بتلك الصور، هذا الخليط من الصدمة والألفة هو ما أسعى إلى فهمه في هذا الكتاب. فإن وجوه الجانيات توحى إلى أنهن كطالبات في صور كتاب الخريجات السنوي المصور، فإذا حكمنا عليهن من تعبيرات وجوههن وإشاراتهم، فهذه صور ظفر وانتصار، فهي مليئة بالبسمات والأأيادي مرفوعة الإبهام. والصور في هذا السياق تعد جوائز تقول: إننا الرابحون في هذه الحرب ضدهم. هذا المنظر الاحتفالي أو النظر الاحتفالي المتأصل في هذه الصور هو جانب واحد من جوانب النظر البورنوجرافي. إن الأشخاص موضوعات هذه الصور أنتهك عرضهم وأذلوا وأهينوا وتعروا، وعندما تصور تلك الأجساد المرتعشة الضعيفة

بجانب الأفراد العسكريين الأمريكيين المنتصرين، فالرسالة الواضحة هي أننا نستطيع أن نفعل ما نريد بهؤلاء الأجانب من مقاتلي الأعداء، فنحن في مقعد قائد المركبة، بينما هم الركاب في هذه الرحلة، وهي بالطبع رحلة سعيدة لنا على حسابهم.

أقول في كتابي: إن هذه الصور "الصادمة" مألوفة لدينا ليس فقط بسبب تاريخ العنف الاستعماري المرتبط بالجنس، بل بسبب تاريخ من التداعيات يربط بين النساء والجنس والعنف، بل إن الارتباط بين الجنس والعنف يستغل الصور النمطية التقليدية وأساطير النساء الخطيرات أو اللاتي يمثلن تهديداً، وهي صور وأساطير بنيت عليها ثقافتنا ولا تزال، فدائماً ما ارتبطت النساء بسقوط الإنسان منذ ادعاء إغراء آدم بالثمرة المحرمة. وهنا أقوم بتحليل الصور الفكرية والحقيقية لنساء من داخل الحرب في الشرق الأوسط بما فيها أفغانستان والعراق وفلسطين، وذلك بخصوص تراث الإمبريالية الاستعمارية، وتراث التداعيات الذكورية المرتبطة بالنساء والجنس والموت.

أقوم في الفصول الآتية بنزع طبقات من المعنى البصري والبلاغي في محاولة لفهم الدلالة الأعمق لهذه "الحرب على الإرهاب" - منها استخدام العسكريين النساء "لتلين" السجناء، وصور النساء مرتديات "البوركا" في أفغانستان، والدفع بأن معتديات "أبي غريب" كن "يمزحن"، وأساليب الإعلام العسكري مثل الصحافة المصاحبة للوحدات - مع الارتباط بين الجنس والعنف في أفلام هوليوود الأخيرة. وعن طريق تأويل هذه الأحداث والصور حال عملها داخل السياق الأكبر لثقافة تدور أشكالها الترفيهية الأساسية حول الجنس والعنف، نتعلم المزيد عن وظيفة المرأة في اقتصاد العنف هذا. وكذلك، فعن طريق تأويل هذه الأحداث والصور داخل سياق

مخيلة ثقافية يمسك الجنس والعنف بتلابيبها، يمكننا أن نبدأ في فهم استماراتنا في العنف. وأملّي أن يسهم فهمنا لاستثمارنا في العنف في قطع دائرة النوازع العنيفة، وإيقاف تحويل خيالنا العنيفة إلى واقع.

يهدف هذا المنهج متعدد الأوجه الذي أتبعه إلى معالجة بعض العلاقات بين خيالنا ورغباتنا ومخاوفنا وبعض ألوان هوسنا، هذا من جانب، ومن جانب آخر معالجة البلاغة الإعلامية (البصرية والسردية)، وكذلك السياسات العامة. بتعبير آخر، إن أحد الأسئلة الدافعة لهذا التحليل هو: ما العلاقة بين حياتنا الروحية أو الوجدانية وتصرفاتنا أو حياتنا العامة؟ وإنني أتعمد تجنب لغة الخاص والعام؛ لأن الفرضية التي أعمل بها هي أن هذين العالمين يرتبطان تمامًا وعلى نحو وثيق بدرجة تجعل أي تمييز بينهما من قبيل الخداع، بل إن أوجه التعارض بين الخاص والعام، بين العواطف والسياسة، بين الأفراد والمجتمع، بين الطبيعة والثقافة يغذي بلاغة الحرب ويتغذى عليها. وإن الفكر التصادمي الذي جعلنا في مواجهتهم، والذي يمحو أي مساحات مشتركة بين الاثنين يقوم بعمل في هذه المناطق الأخرى أيضًا. وكما سنرى، فإن إنكار المناطق المشتركة - تلك المناطق الرمادية التي لا يسهل فيها تبيين قطب من الآخر - يزكي ثقافة العنف.

وأحاول في الفصول الآتية أن أحدد ملامح معنى أعمق في البلاغة البصرية والسردية للحرب على الإرهاب. ولُبُّ اهتمامي في هذا التحليل هو كيفية إدراك هذه الحرب وتمثيلها، وهناك فرضية حاضرة أخرى، وهي أن العمل على تأويل تمثيلات الأحداث في وسائل الإعلام الذائعة يمكن أن يكشف لنا شيئاً عن رؤيتنا لأنفسنا ورؤيتنا للآخرين، فإن القراءة الناقدة للإعلام يمكن أن تعلمنا شيئاً عن مخاوفنا ورغباتنا الراسخة التي تدفع تفكيرنا

وسلوكننا، قد لا نكون واعين بالمخاوف والرغبات الكامنة وراء تصوراتنا عن أنفسنا وعن الآخرين، وتصرفاتنا حيال أنفسنا وحيالهم. وقد حاولت باستخدام أدوات نظرية من الفلسفة والتحليل النفسي وعلم الاجتماع أن أستخلص الأخطار الوجدانية والسياسية في حربنا على الإرهاب، عن طريق تمشيط التمثيلات الإعلامية للنساء الضالعات في العنف، وذلك بمقارنة مناقشات تحرير النساء هنا بأمكن أخرى، وبدراسة دور تكنولوجيات التسجيل البصري في تجربة الحرب وبتحديد أساليبنا في تبرير عنفنا (عالي التقنية) بما في ذلك تصور أن ضلوع النساء ”يخفف الصفة“ بعض الشيء.

ففي حالة أبي غريب، فإن النساء، كما يظهر، قد أجبرن الرجال على أداء أوضاع جنسية، وقد أربك ذلك منظمات حقوق الإنسان نفسها، وهي تحاول تصنيف هذه السلوكيات، أو مجرد تعريفها بوصفها من أفعال هتك العرض. فالطبيعة الجنسية للصور تزعجنا؛ فمن جانب، تبدو ”الابتسامات المرحّة“ أو ابتسامات فرق التشجيع النسائية“ التي ارتسمت على وجوه هؤلاء المراهقات متنافرة مع السياق الحربي. ولكن، كما أقول في الفصل الأول: إن مجرد فكرة استخدام النساء أدوات في التحقيق تلعب على المخاوف القديمة من النساء، والتصور غير العقلاني بأن الطبيعة الجنسية الأنثوية سلاح خطير. إن هذه الألفة في الربط بين النساء والجنس والسلاح هي التي تجعل تلك الصور متميزة تميُّزًا غريبًا - فغرابتها توازي ألفتها. كان النساء في الماضي يُشَبَّهْنَ ”بالقنابل“، وكانت جاذبيتهن الجنسية تُصوَّر على أنها سلاح مهم، وعليه ينبغي ألا يفاجئنا الانفجار الحربي، لا المجازي، للنساء في مشهد الحرب حاليًا. فمن النساء الضالعات في سجون أبي غريب وخليج جوانتانامو، إلى الجنديّة جيسিকা لينتس التي تم إنقاذها من الأسر، إلى

الفدائيات الفلسطينيات، كلهن تحولن، على يد التغطية الإعلامية الحديثة، إلى "أسلحة حربية". وكما سنرى، في كل حالة من هذه الحالات تستخدم مجازات "الأسلحة" مرة بعد أخرى لوصف النساء والطبيعة الجنسية الأنثوية. في الفصل الأول أقوم بتحليل انبهارنا بما نتخيل أنه قوة مميّنة لهؤلاء النساء.

كذلك فإنني في الفصلين الأولين أفحص الخطاب المحيط "بالنسوية" و"تحرير" المرأة كما استخدم في سياق الحرب في الشرق الأوسط. فمن جانب ألقى باللوم على النسوية بسبب عنف النساء تجاه الرجال، بافترض أن النسوية منحت النساء حقاً مساوياً للرجال لممارسة القتل والإيذاء. ومن جانب آخر، استخدم اهتمام النسوية بتحرير النساء لتبرير العمل العسكري في الشرق الأوسط وأفغانستان تحديداً.

في الفصل الثاني أبين أن خطاب إدارة بوش عن تحرير "النساء مرتديات الحجاب" في أماكن أخرى يستدعي تصورات الحرية ومكاسب النساء هنا. كما أن هذا الخطاب يطمس حقيقة أن هذه الحرية تجلب معها أشكالاً أخرى من القيود هنا وفي الخارج. وأحد أمثلة هذه القيود الانضباطية المفروضة على النساء في الولايات المتحدة الارتفاع المستمر في مستويات "الأمومة المهنية": فالأمهات مطالبات بعمل كل شيء في الأسرة والحياة المهنية، ولو كان معنى ذلك اللجوء إلى البروزاك أو الكافيين أو الحبوب المنومة حتى يحافظن على أداء جدول أعمالهن المشحون. وفي هذا الفصل أربط بين خطاب تحرير النساء في الشرق الأوسط والخطاب الذي استخدم في تجارب استعمارية سابقة لتبرير العمل العسكري الخارجي، وقت كانت نساء الوطن محرومة الحقوق. كما أبين أن الحرية التي نحملها معنا لهؤلاء

النساء، تم تصويرها على أنها حريتهن في التسوق مما يوحي إلى أن مفهوم الحرية الأمريكية المقدم للعالم من خلال الحرب يمكن أن يختزل في حرية السوق. وفي هذا الخطاب فإن حق النساء في التسوق وفي ارتداء ما يشتهين يصير مقياس الحرية الكوكبية، كما أن حرية المرأة في أن تكشف ذراعيها تُعدُّ علامة على الحرية والتقدم.

إن تداعيات كلمة "الحرية" محل دراسة في مواضع الكتاب كافة، حسبما تظهر في الإعلام والخطابات الرئاسية والمقالات العلمية. ففي تاريخ الاستعمار صارت الحرية سبباً للحرب، وحملت وزر عنف النساء في الجيش الأمريكي عن المشاركة العنيفة للنساء في عمليات التفجير الانتحارية. وقد أعلن الرئيس أنه يريد أن يأتي بالحرية والديمقراطية للعالم كله، وأن هجمات سبتمبر الإرهابية كانت من أعمال الحرب ضد العالم الحر بأسره. فإذا كانت الحرية معرضة للخطر في الحرب على الإرهاب، فمن اللازم أن نسأل ما الذي نعنيه بكلمه "الحرية".

في الفصل الثالث: أحل خطاب الحرية كما استخدمته إدارة بوش لتبرير الحرب. وفي هذا التحليل للخطابات الرئاسية تنكشف صلة جوهرية بين الحرية والممتلكات، وبين الحرية وفكرة التملك. فإننا نحارب لنحمي ممتلكاتنا وحقنا في التملك. مرةً أخرى، تختزل الحرية في السوق الحر، ففي هذه الخطابات يعمل خطاب الحرية بالتناغم مع خطاب الخير والشر. ومرةً أخرى، تختزل حماية الخير في حماية البضائع. وهكذا فإن معاني الحرية والعدل والخير تصبح من المنقولات، بحيث يمكن حرقها في سوق السياسة، لتبرير العمل العسكري لكسب الثروة لأمريكا وتأمينها، وتصبح الحرية والخير دعوات الرأسمالية الكوكبية عالية الصوت. وهنا يصير فتح أسواق

جديدة وضمنان عقود للشركات الأمريكية علامة على النجاح في الحرب على الإرهاب.

ولكن، كما سنرى، فإن الخوف من ضياع ثروتنا وعزمنا على أن نحميها مهما كلف الأمر، يؤدي بنا إلى وطنية مريضة بالريبة، حيث نشعر أن ثروتنا مهددة من كل جانب. أما الوجه الآخر من مرض الريبة هذا، فهو وهم العظمة الذي يدل عليه الحديث عن "العالم الحر بأسره"، و"جلب الديمقراطية للعالم كلها". أما تصورات كوننا مركز الكون، وأن العالم كله تحت أمرنا، فهي تتسق مع تصور كوننا محاطين بقوى الشر المتحضرة لتدميرنا، وهي أعراض كلاسيكية لمرض البارانونيا، حسب مصطلحات التحليل النفسي. إن إحساسنا بأنفسنا كأمة يقوى بإيجاد عدو مشترك، وبأن نرى أنفسنا نخوض معركة الخير ضد قوى الشر حولنا من كل صوب. كما أن إحساسنا بأنفسنا كأحرار يترسخ بمقارنة أنفسنا بأناس آخرين، ولا سيما النساء، في أماكن أخرى وتصور أنهم مستعدون.

إن تضخم خطاب الخير ضد الشر ونحن في مواجهتهم يغذي وطنية مريضة بالبارانونيا، تعمل بلا تفكير. وربما كان الأجدر بالقلق في الخطابات الرئاسية هو الربط بين هذا الخطاب والأبدية واللّه، فإننا نخوض حرباً أبدية؛ لأن اللّه في جانبنا. وقد ختم بوش خطابه في ذكرى أحداث 11/9 لعام 2006 بقوله "إننا نسير قدماً بثقة في تلك الروح - روح الشعب الأمريكي - والثقة بهدفتنا، والإيمان برب محب هو الذي جعلنا أحراراً". فإذا كنا نحارب إلى الأبد، فإننا نخوض حرباً بلا نهاية، حرباً دائمة دونما احتمال للسلام. وثمة جانب آخر خطير في خطاب الأبدية هذا، وهو انتزاعه الحرب من سياقها الاجتماعي التاريخي. وعلى ذلك فليست الحرب من أجل البترول أو الأسلحة

النووية أو الحكام المستبدين، أو المحافظة على مكانة أمريكا بوصفها قوة عظمى، أو إعادة بناء العراق، أو حتى إجراء انتخابات حرة في العراق، بل حرب من أجل الخير الأبدي وإيماننا بالله. ويتمثل خطر نزع الأحداث من سياقها الاجتماعي والتاريخي في أننا نحرم من المعلومات الضرورية لتأويل هذه الأحداث وفهمها. ونعطي صوراً بلاغية انفعالية تحرك المشاعر، مشاعر الكراهية والانتقام العنيفة، ولكننا لا نشجع على التفكير الكاشف لحقيقة تلك المشاعر، بل نجد تشجيعاً على مشاعر العنف والرغبة في الانتقام دون تفكير في استثماراتها في ذلك العنف أو في تبعاته.

وليست الإدارة وحدها هي التي تقوّض قدرتنا على التفكير النقدي في السياسة العامة والحرب. فالإعلام، ولا سيما تغطيته أحداث 11/9 والحرب في العراق، يسهم في تفاقم هذا الارتباك. وأقوم في الفصل الثالث بتحليل التقارير العسكرية المصاحبة وشرائط الأخبار المتحركة والأحداث الممثلة في العروض الإخبارية، وكيف تخرج الأحداث عن سياقها، بل تلمس الفرق بين الخيال والواقع. إن هذه التمثيلات والسيناريوهات المتخيلة تزرع الخوف والوطنية المريضة بالبارانويا. وتسمح التقارير المصاحبة، في أحسن الأحوال، باختلاس النظر إلى حياة الجنود أو المدنيين في زمن الحرب، ومن ثمّ فهي تثير التعاطف أو التقمص، ولكن هذه التقارير التي تعرض شرائح من الحياة تقدّم خارج السياق، وتتخللها مشاهد تمثيلية وإعلانات تجارية وترفيه، فيكون التعاطف أجوف، ولا يساعدنا على فهم الموقف أو يؤثر في مشاعرنا أو معرفتنا. وفي أسوأ الأحوال، فإن الصور البصرية الآتية من أفغانستان والعراق تواصل تاريخاً طويلاً من استخدام التكنولوجيات البصرية في المشروعات الاستعمارية.

في هذا الفصل أقوم بدراسة الرغبة في تغطية الحياة والتقارير المرفقة من حيث أثرها في شعورنا بالزمن وشعورنا بالواقع، وعلاقتها بهذا المشروع الاستعماري، فأقول عن التقارير الحية المرفقة: إنها تخلق حاضرًا مستمرًا يخرج الأحداث عن سياقها ويطبّعها، ومن ثمّ يغلق إمكانية التأويل النقدي اللازم للتفكير في معنى تلك الأحداث. إن الحاضر المستمر المرتبط بالإذاعة وإعلام الإنترنت يسهم في كسر الحدود بين الخيال والواقع. وأنا أصف كيف تؤدي مشاعر الضعف وفقدان الأمان إلى خلق شكل دفاعي من الوطنية المريضة بالبارانويا. فعندما يحل الخيال محل الواقع، وعندما يصير الواقع رهن التسويق، يزداد العنف تطرفًا.

إذا علمنا أنه بعد هجمات 11/9 الإرهابية مباشرة كانت كلمة "vulnerable" (عرضة للجرح) من أكثر الكلمات استخدامًا، فمن الضروري أن نفكر في معنى الجرح فيما يتعلق بالعنف، ولا سيما أن هذه الكلمة يعقبها غالبًا كلمة "حرب". وفي الفصل الأخير، أستكشف الصلة بين الجرح والعنف، حتى نفهم لماذا تحل الرغبة في الحرب سريعًا محل الإحساس بالجرح. ففي الآونة الأخيرة أقر الفلاسفة بأن الجرح أو خوف التعرض للأذى أحد مكونات بشريتنا. وعلى سبيل المثال، ترى جوديث بتلر وجوليا كريستيفا أن مفهوم الجرح يعني أننا كلٌّ بطريقتها، لا بد أن نقبل قابلية الجرح فينا، لا أن ننكره؛ لأن إنكار قابلية الجرح يؤدي إلى الحرب. والمؤكد أن توهم القوة المطلقة، واستبعاد قابلية الأذى يضم العنف بطبيعته، فكلمة "vulnerable" تعني أن ثمة جارحًا ومجروحًا. وهنا أستبعد القول: إن العنف جزءٌ من الطبيعة البشرية، وأقترح بدلاً منه فكرة أن القدرة على تخطي العنف عن طريق تجاوزه هو ما يميز البشرية.

يبدأ تأملي في فكرة قابلية الجرح بتحليل البراءة التي يدفع بها المتهمون في أبي غريب؛ إذ يقولون في محاكماتهم: إنهم ”كانوا يمزحون فقط“ أو ”يتسلون“. وبغض النظر عن درجاتهم ومكانهم في ساحة الحرب، فعلى مستوى آخر قام هؤلاء الجنود والجنديات بإيذاء السجناء ليسلوا أنفسهم. وقد ادعوا الجهل بالطقوس الدينية الإسلامية، وادعوا أنهم أبرياء أخلاقياً، ولو أدينوا جنائياً. وفي الفصل الرابع، أقوم بدراسة ذلك الفاصل بين البراءة الأخلاقية والقانونية، بالإشارة إلى فاصل أشد بين الأحاسيس البدنية والقانون أو المعنى في ثقافتنا. فأحلل كيف تكون التبريرات القائمة على فكرة ”الشاة السوداء“ أو ”عدد قليل من التفاحات الفاسدة“ في أبي غريب، أعراضاً لمرض في جزء من ثقافتنا يطمس الحدود بين البراءة والجهل والعنف.

إن تحليلي يدفعه السؤال الآتي: ما أوجه الثقافة التي تسمح بتشنئة جنود وجنديات صغار السن يقومون بإيذاء، بل بتعذيب الآخرين من باب ”التسلية“؟ وأجيب عن هذا السؤال بالتركيز على جوانب عجز القوانين المدنية والأخلاقية في مجتمعنا عن إكساب المعنى لحياتنا الوجدانية ووجودنا المتجسد. فالقانون - وهو بمعناه الأوسع ما يمنح الحياة بنيتها الاجتماعية - قد استحال إلى مجرد لوائح وشفرات تنظيمية لا تكسب الحياة معنىً قوياً بليغاً. فهذه اللوائح تنظم وتضبط، وفي الحالات القصوى تعاقب أبداننا، ولكنها لا تضي المعنى المناسب على لذات البدن وآلامه. ومن نتائج ذلك تولد ما أسميه ”الأفراد الجهنميين“، وهم أناس انفصلت حياتهم الوجدانية عن التعبير ذي المعنى، أو بلغة التحليل النفسي أناس انقطعت لذاتهم وآلامهم البدنية عن أي سمو ذي معنى. هذا الانقطاع بين البدن والمعنى، أو بين العاطفة والقانون له كذلك أثر في اتجاهاتنا نحو القوة المشروعة وغير المشروعة، ولا سيما فيما

يخص رؤيتنا للانتحاريين أو ”مفجري الجسد“ ، كما تسميهم الفيلسوفة أدريانا كافيريرو.

أما الفصل الأخير فتأمل في أشكال المعنى الثقافي (أو غياب المعنى)، التي أثمرت هذا المرح الخالي من الإحساس بالذنب في الانتهاكات الجنسية في أبي غريب من جانب، واعتناق الموت من قبل المفجرين الانتحاريين من جانب آخر. فما السياقات الثقافية التي تتيح للشباب والشابات أن يهتكوا عرض السجناء ”براءة“ لمجرد ”التسلية“؟ وما السياقات الثقافية التي تتيح لمفجرات انتحاريات أن يقدمن حياتهن فيقتلن أنفسهن وآخرين؟ وكذلك لماذا تجذبنا صور النساء اللاتي يؤذين الرجال ويقتلنهم إلى هذه الدرجة؟ فإذا انتقلنا من تحليل بلاغة الخطاب المستخدم لوصف النساء الضالعات في أعمال حربية إلى أدوارهن الثقافية ودلالاتها، فالدراسة تتوجه إلى اللذة في العنف والشغف بالموت، الذي تبديه تلك النساء وصحبتهم في سياق الثقافات والتكنولوجيا التي نسجتهم.

على الرغم من أن المفجرات الانتحاريات يختلفن عن معتديات أبي غريب في أوجه كثيرة، إلا أن الفريقين يشتركان في استخدام الأساليب البورنوجرافية، ورؤية الاحتفال بالنصر ويعتمدان عليها. فالإرهابيون الانتحاريون يعتمدون على الإعلام ليرهبوا الناس، ويعتمدون على الرؤية البورنوجرافية ليصدموا أعداءهم. كما يصور الإرهابيون عمليات الإعدام بقطع الرأس لتعرض على شاشات التلفزيون والإنترنت، بوصفها دليل إثبات على عنفهم، كما يستخدمون التلفزيون والإنترنت لينشروا صورًا تشهد فيما يبدو بانتصارهم في حرب للخير على الشر، وللمؤمنين على الكافرين. وعلى الجانبين، صار الحرب والعنف مشاهدًا وفضائح إعلامية تضاف إلى الممارسات السياسية في

سياق اقتصاد كوكبي أو تاريخ عالمي. تنزع هذه المشاهد من سياقها وتُسْتَعْلَم؛ لأنها سلعة إعلامية رائجة إذاعياً وعلى الإنترنت.

إلى هذا الحد يسهم الإعلام في تعزيز النظر البورنوجرافي الذي يؤدي بسهولة إلى الرؤية الاحتفالية، فإننا نجعل من أنفسنا أبطالاً لقصصنا عن طريق تصوير المهزوم على أنه مجرد موضوع لأنظارنا، وهم يفعلون الشيء نفسه. وأنا أقترح بديلاً للرؤية البورنوجرافية، وهي ما أسميه ”رؤية الشهادة“. فبعد أن قدمت هذا المفهوم في كتاب سابق بعنوان ”الشهادة“، أفضل هنا في بيان أن المعنى المزدوج للكلمة يمكن أن يساعد على إثراء فهمنا لما يمكن أن نراه بلفت النظر إلى إدراك مناطق الخلط في الحياة وليس بإنكارها. وللشهادة معنيان، أولهما المشاهدة بالعين كما في قولنا ”شاهد عيان“، وثانيهما كون المرء شاهداً على شيء لا يراه مباشرة بل عايشه، مثل أن يكون شاهداً على فظائع الحروب. ويساعدنا الخلط في معنى الشهادة على استدعاء مناطق الخلط في خبراتنا، وهو نوع من نقل أو إعادة حس الحياة إلى فعل الرؤية. وجوهر الأمر أنني أركز على ضرورة الاهتمام بالسياق الاجتماعي التاريخي للأفراد إلى جانب إرادتهم الذاتية، بل يمكن أن نقول روحهم. فالشهادة إذن تقتضي رؤية الموقف الاجتماعي التاريخي الذي يضع المرء حيث هو، كما يقتضي رؤية روحه أو إرادته التي تسمح له بتغيير ذلك الموقف. وهنا تتضمن الشهادة الاهتمام بالماضي والمستقبل في علاقتهما بالظروف الحاضرة، وليس إلقاءهما في الحاضر الدائم لأغلب البث التلفزيوني وصور الإنترنت.

وفي الختام أقول: إن الشهادة يمكن أن تثري مفهومنا للحرية؛ فالحرية المختزلة في السوق الحرة ليست كاملة. حتى الحرية المختزلة في غياب المحظورات ليست كاملة. فمن دون حرية المرء في خلق معنى حياته، ولا سيما

معنى جسده، تكون الحرية فارغة. وربما يكون هذا هو السبب في أن كثيرًا جدًا من مواطني "العالم الحر يتعاطون أدوية مضادة للاكتئاب (البروزاك) والأقراص المنومة والمسكنات سعيًا إلى ملء فراغ، سببه تفريغ حياتنا من المعنى. وربما هذا هو السبب في أن كثيرًا جدًا من شباب الطبقة الوسطى الذين يعيشون في أرض الأحرار يلجأون إلى جرح أنفسهم أو ممارسة "لعبة الشنق" حتى يشعروا بالحياة، أو على العكس من ذلك يأخذون في إطلاق النار عشوائيًا داخل مدارسهم المحلية. إن انتشار الاكتئاب وتعاطي العقاقير الطبية، وجرح الذات، والعنف بين الشباب كلها تشير إلى وجود مشاعر قوية قابضة تحت سطح ثروتنا ورخائنا، مشاعر تصير هدامة عندما لا يكون لها منافس صحي أو بدائل.

إن ضغوط السوق الحرة تخلق مخاوف ورغبات يظل مسكوت عنها وباطنية؛ لأن التأويل بمعنى عميق يناقض هذا المفهوم المسطح للحرية، فإن حرية السوق لا تسمح بالتأويل إلا عندما يكون مريحًا، وفي سياق ديمقراطيتنا الثرية، يختزل معنى الحياة في الثروة المادية، وليس في ثروة النفس أو الروح. إن حرية النفوس، حرية الروح تعيش على المعنى، وتغذيها عملية التأويل التي تغذي المعنى. صحيح أن الجسد الجائع تصعب عليه تغذية الروح، وأن الحرب تقوم في العالم المادي على الأجساد، ولكنها أيضًا تخاض في عالم المعنى الرمزي. وحتى نفهم مخاطر الحرب على الإرهاب، لا بد أن نؤول المعنى. لا بد أن نملك شفرة معنى استثماراتها في العنف. وحتى نكون أحرارًا لا بد أن نؤول مخاوفنا ورغباتنا قبل أن نعالجها ونتصرف وفق ما تقتضي. وإضافة إلى الأخطار السياسية والاقتصادية للعنف تجاه أنفسنا والآخرين، هناك الأخطار الأخلاقية التي تجعل الحياة ذات المعنى.

إن الأخطار التي يتناولها هذا الكتاب تأخذنا إلى أبعد وأعم من الحرب في العراق أو صور المحاربات، إلى اعتبارات الأخلاق والسياسة؛ فإن التقديم الإعلامي للحرب في العراق يمكن أن يعد دراسة حالة يمكننا من خلالها استبيان الأخطار الأخلاقية والسياسية لأفكار معينة على علاقتنا بأنفسنا وبالأخرين. فإن طريقتنا في وصف أنفسنا ووصف أعدائنا يمكن أن تحدد أسلوب استجابتنا لمواقف العالم الحقيقي السياسية. تأتي كلمة ethics الإنجليزية (أخلاقيات) من الكلمة اليونانية ethos ومعناها سمة أو أسلوب حياة. وإن هذا الشيء - سميتنا أو أسلوبنا في الحياة - هو ما يقال لنا إنه معرض لهجوم الإرهابيين، ولكن ما هذه الأخلاقيات؟ وما أسلوبنا في الحياة، ولا سيما فيما يخص الأخلاق؟ إننا اليوم نسمع كثيراً عن "الأغلبية الأخلاقية" والمحافظة الأخلاقية للأمريكيين. ولو أن مفهوم الأخلاقيات هذا يعمل من خلال مثل للخير مقابل الشر تفرق بين الناس والأفعال، فتجعل منها المقبول والعييب، والطاهر والدنس، والخير والشر، إلخ. وكما قلت في موضع آخر، فإن الاستعمار والظلم والحرب يبررون وجودهم باستخدام الأخلاق - ولكنها أخلاق تملأ أخلاقتنا أو حياتنا المعنوية عدوانية وعنفاً، بل إننا نستخدم الأخلاق لتبرير أشد أشكال العنف تطرفاً، ولنخلي أنفسنا من المسؤولية عن أفعالنا. فإننا نعتقد أننا نملك حقاً مقدساً لحفظ أسلوب حياتنا، وأن العناية الإلهية تقضي بهلاك كل من يتحدى أسلوب الحياة هذا. فكيف يوجد كل هذا القتل باسم امتلاك الحق الأخلاقي - على الجانبين؟

وكامتداد لتحليل الصور الإعلامية للحرب وتحديد استثماراتنا في العنف، أقترح النظر في الأخلاق التي تخرج عن حدود أخلاقيات الخير والشر أو تتجاوزها، حتى نصل إلى أخلاقيات قائمة على اعتمادنا الجوهرية

على الآخرين وعلى بيئتنا لوجودنا ذاته، وكذلك لتحقيق إمكانية حياة ذات معنى فلا بد أن ننظر إلى أنفسنا وإلى الآخرين بوصفنا جيراناً في كوكب واحد، وبوصفنا جزءاً من منظومة بيئية واحدة وقبل ذلك بوصفنا مرتبطين بعلاقات اعتماد متنوعة بعضنا على بعض، تقوم عليها حياتنا، وتمنحها المعنى. إننا نعتمد على الآخرين وعلى الأرض، ليس لبقائنا فحسب، أي في حياتنا البيولوجية ذاتها، بل في نوعية حياتنا كذلك، وحياتنا الوجدانية، وحياة أرواحنا. فإذا كنا نرفض أن نختزل مفهومنا للحياة ”الطيبة“ في البضائع والخدمات لا أكثر، فلا بد أن نتجاوز التمييزات الأخلاقية التي تحركها السياسة، فالأخلاق، كما نقدمها هنا، تتجاوز حدود العيب والمقبول في العلاقات، فهي ليست مجموعة من القوانين التي تقسم الناس إلى خيرٍ وشرير، إلى سيد وتابع، أو صديق وعدو؛ فالأخلاق هي الاعتراف بأننا نعيش ونرقى بفضل علاقاتنا مع الآخرين الذين لم نقابل كثيراً منهم (كالمزارعين الذين يزرعون الخضراوات، وعمال المصانع الذين ينتجون أحذيتنا، وعمال الميناء الذين يفرغون شحناتنا من الأجهزة الإلكترونية وغيرهم). فإن علاقاتنا القريبة والبعيدة هي التي تمنح الحياة معناها، وبهذا التعريف المهم يمكننا أن نجعل تصورنا لعلاقاتنا مع الآخرين، مهما كانت درجة قربهم أو بعدهم، جانباً محورياً في السياسات الكوكبية.

الانتصار في ”الحرب على الإرهاب“

ما معنى الانتصار في ”الحرب على الإرهاب“؟ هل سيعني أن الأمريكيين لن يشعروا بالتهديد أو التعرض للأذى مرة أخرى؟ يعرف قاموس أوكسفورد للغة الإنجليزية كلمة terror (الرعب أو الإرهاب) بأنها ”الخوف الشديد أو الفرع“، فهل نشن حرباً على الخوف؟ وهل كَسَبُ هذه الحرب يعني أننا لن

نشعر بالخوف الشديد أو الفزع مرة أخرى؟ وهل كسب الحرب ضد الإرهاب سيعني استئصال الخوف أو الفزع من حياتنا؟

إذا كانت هذه هي حدود تعريف النصر، فالانتصار في الحرب على الإرهاب أمر مستحيل؛ لأن المكسب ليس محتملاً في هذه الحرب. فإن لم يكن الأمر كذلك فالحرب على الإرهاب هي في الواقع حرب على شيء آخر، ولكنه مغلف بخطاب الإرهاب. فما الذي يعنيه نشر عبارة "الحرب على الإرهاب"؟ وما نوع الحرب التي نخوضها؟ وما معنى خسارة الحرب على الإرهاب؟ هل تعني، كما يرى الرئيس بوش، أننا سنكون عبيداً لطغاة أشرار متسلحين بأسلحة نووية؟ إن خطاب "الريح أو الخسارة" شأنه شأن خطاب الخير أو الشر يوحي إلى أننا نعيش في عالم أبيض وأسود فقط، بلا ظلال رمادية، أي أننا إما منتصرين أو خاسرين، خيرين أو أشراراً، وأنك إما معنا أو ضدنا، أو أنك منا أو علينا.

منذ إعصار كاترينا، أخذ المسؤولون الحكوميون في الحديث عن استعدادات للكوارث الطبيعية بنغمة الحديث عن الهجمات الإرهابية نفسها، فهم في نفس واحد يتكلمون عن قدرات الوكالات الحكومية على الاستجابة لأحداث مثل أحداث 11/9 وكاترينا. أصدرت وزارة الأمن القومي بياناً بخطوط عامة عن الاستعداد للكوارث من الأنواع كافة، حتى إنه بعد إعصار كاترينا أصدر وكيل الوزارة لشؤون الاستعداد دليلاً لاستعداد الطوارئ يخص الحيوانات الأليفة، فهل يعني ذلك أن الحرب على الإرهاب تشمل الكوارث الطبيعية؟ والأهم كيف سيشعر الأمريكيون بالأمن والأمان في وجه قوى الطبيعة القاتلة مثل الزوابع والأعاصير والفيضانات التي ترهبهم بخطر الموت والدمار؟

يخوض الرئيس بوش " حرباً على الإرهاب "، ولا شك في أن الانتصار على الإرهاب والفرع والخوف سيكون أمراً رائعاً... تصور الناس في أرجاء المعمورة كافة وقد تخلصوا من الفرع من المجاعات والأمراض، والفرع من الكوارث الطبيعية، والفرع من الحرب نفسها، وبكل وضوح، ليست الحرب التي نخوضها ضد الإرهاب من هذا النوع، فإذا كنا نتوقع أن تكون حكومتنا قادرة على رعايتنا في أثناء كارثة طبيعية، فليس من المنطقي أن نتوقع منها القدرة على منع مثل هذا الحدث من الوقوع. وهذه الحرب لا تهدف إلى وضع نهاية للمجاعات والأمراض، وفضائح الفقر في أرجاء المعمورة كافة، فالحق أننا لا نحارب لنضع حداً للفرع أينما وجد. وهكذا فإن ما يسمى " الحرب على الإرهاب " ينبغي أن يسمى حرباً محدودة على الإرهابيين. ولكن القفزة من الفرع أو حتى الإرهاب إلى الإرهابيين قفزة هائلة، فلا بد أن الإرهابيين أنفسهم ينكمشون في وجه الإرهاب.

فإذا كان عدونا الإرهابيين لا الإرهاب؛ فليست هذه بحرب على الإرهاب، بل حرب على أناس يرهبون الآخرين باستخدام قوة قاتلة، وفي هذه الحالة فالانتصار في الحرب على الإرهاب قد تعني القبض على كل من يستخدم قوة مميتة ضد الآخرين أو قتله. ولكن هذه الرؤية للفرع أو للإرهاب لا تتفق مع ما نغنيه " بالحرب على الإرهاب "، ولا سيما أن حكومتنا وجيشنا وحراس السجون المدنية لدينا قد استخدموا وما زالوا يستخدمون القوة المميتة التي بلا شك ترهب الناس الذين يقعون تحت وطأتها، بمن فيهم المدنيون الأبرياء، فلا بد أن يكون الاختلاف هو أن أعداءنا في الحرب على الإرهاب يستخدمون القوة المميتة ضد الناس بطريقة تختلف عن طريقتنا، وتميز إدارتنا بين القوة الشرعية والقوة غير الشرعية؛ فقوتنا هي الشرعية، وقوتهم غير شرعية.

ولأن كلمة "شرعية" تعرّف بأنها قانونية، فهذا يعني أن قوتنا قانونية وقوتهم غير ذلك. ولكن "قانونية" لدى مَنْ؟ فنحن نقول: إن عنفهم غير مشروع، ولكنهم يقولون: إنه العدل.

في هذا النوع من النزاع ربما نتصور أن قانونية الحرب لا بد أن يحكمها القانون الدولي، وهو بالتأكيد يدين الإرهاب، ويدين هجمات 11/9 الوحشية. ولكن في السنوات الأخيرة الماضية دخلت حكومتنا في معارك قضائية ومناظرات برلمانية حول مدى انطباق معاهدة جنيف والقانون الدولي على الحرب على الإرهاب. فقد وصف النائب العام ألبرتو جونزاليس معاهدة جنيف بأنها "عتيقة"، يقصد بذلك أنها قد عفا عليها الزمن، وأن أحكامها لا تنطبق على موقفنا الراهن، وبما أننا نخوض حرباً "لا تشبه أي حرب خضناها من قبل" فإن القواعد التي استخدمناها من قبل - بما فيها القانون الدولي - لن تنطبق عليها. كما أن ظهور صور تعذيب "المحتجزين" في سجن "أبي غريب" بالعراق، وظهور معلومات عن أساليب الاستجواب الغريبة في خليج جوانتانامو، قد طرحت أسئلة حول مدى اتباع جيش الولايات المتحدة للقانون الدولي، فقد جرت مناظرات، ولا تزال، حول ما يُعدُّ تعذيباً وكيفية تعريفه. كما جرت، ولا تزال تجري، مناظرات حول ما يعدُّ إرهاباً وكيف نعرّفه. مَنْ الإرهابيون؟ وهل نستخدم قوة شرعية أم غير شرعية؟ ويبدو أن تعريف القوة الشرعية محل نزاع.

فإذا عجزنا عن تمييز أنفسنا عن أعدائنا فيما يخص استخدام القوة المميتة أو حتى القوة الشرعية، فكيف نرى أنفسنا بالنسبة إلى أعدائنا؟ ففي الذكرى الخامسة لهجمات 11/9 الإرهابية، قال الرئيس بوش: إن "تسعة عشر رجلاً هاجمونا بوحشية لا مثيل لها في تاريخنا، فقتلوا أناساً من كل الألوان

والأديان والجنسيات، وشنوا حرباً على العالم الحر بأسره، ومنذ ذلك اليوم، تقوم أمريكا وحلفاؤها بالهجوم في حرب لا تشبه أي حرب خضناها من قبل... لقد رأَت أمتنا في 11/9 وجه الشر". - التوكيد من المؤلفة - إذن فإن عدونا هو الشر نفسه، وحسب كلام الرئيس بوش، فإن أعداءنا "أشرار، يقتلون بلا رحمة"؛ وإنهم "يكرهون الحرية" ويخططون للهجوم على "الأمم المتحضرة"، ومن ثمَّ يخوضون "حرباً على العالم الحر بأسره". ويصف الرئيس الحرب على الإرهاب بأنها "كفاح من أجل الحضارة" نفسها، فالحرب على الإرهاب، إذن، كأنها حرب على الهمجيين الذين يعادون الحضارة، إنها حرب الخير ضد الشر، والحرية ضد الطغيان، والرحمة ضد الكراهية.

بصرف النظر عن أن دخول عالم الأيديولوجية يعني أن مصائب قوم عند قوم فوائد، نود أن نسأل: ما معنى أن تكسب الحرب من أجل الخير على الشر، أو أن تقاتل من أجل الحضارة؟ إن الرئيس بوش يطرح الأمور بصيغة كل شيء أو لا شيء، إما أن نخرج منتصرين "أو أن يخرج المتطرفون منتصرين"، "فإنك - إما - معنا أو ضدنا". فهل يعني ذلك أننا إما نتصر، ومن ثمَّ نحكم العالم، وكما يقول بوش نأتي بالديمقراطية للكرة الأرضية، أو أن نخسر فنستعبد أو يقتلنا الإرهابيون الذين سيحكمون العالم ويأتون بإدارة ما سماه "الفاشية الإسلامية" لنا جميعاً. هل يمكن أن نتصور انتصاراً أو هزيمة بهذا الحجم إلا في فيلم من أفلام جيمس بوند؟ 1 فهل بإمكان الولايات المتحدة في يوم ما أن تسيطر على الإرهابيين في الكرة الأرضية بأسرها، إلى درجة ألا يتعرض أحد إلى تهديدهم بعد ذلك؟ وهل يستطيع المتطرفون فعلاً أن يستولوا على أمريكا، ويجعلونا عبيداً لما يسميه بوش "رؤية محرّفة للإسلام"؟

إذا كانت الحرب على الإرهاب حرباً على قوى الشر التي تقتل بلا رحمة، فما معنى الانتصار في هذه الحرب؟ إنه يعني إما محو الإرهاب من الوجود الإنساني، أو على الأقل من حياة الأمريكيين، أو أن الحرب على الإرهاب ليست حرباً على الإرهاب على الإطلاق، بل إنها شيء آخر. فإذا كانت الحرب على الإرهاب تهدف بحق إلى محو الخوف والفرع من حياتنا، فالانتصار فيها مستحيل، وحتى إذا كان الهدف يقتصر على محو الخوف أو الفرع من الهجمات الإرهابية، فكيف لنا أن نخوض حرباً ضد حالة ذهنية؟ ليست هذه الحرب كغيرها؛ لأنها حرب لا نستطيع مجرد تصور الانتصار فيها، إذ ما معنى أن تهزم الشر نفسه؟

من جوانب الصعوبة في تصور الانتصار في هذه الحرب رفع سقف الأخطار المتعلقة بها إلى درجة مبالغ فيها، فالحضارة ذاتها هي ما يفترض تعرضها للخطر. إن خطاب الخير في مواجهة الشر، والحرية في مواجهة الطغيان، على ما فيه من غلو، ليس جديداً على هذا الصراع، فالطرفان يستخدمانه. ولكن هذا التدريب على الخيال بيّن أن الحرب على الإرهاب، أيّما ما كان هدفها، هي حرب أيديولوجية أيضاً حول المعتقدات والقيم، وحول ما يعد حرية وعدلاً وخيراً وشرّاً وتعذيباً وإرهاباً، حتى فكرة أننا ” في حالة حرب “ تبدو غريبة إذا تذكرنا طبيعة العدو والأساليب التي اتبعناها في ” مطاردته “. فالحملة العسكرية تشمل مهمة ضخمة للعلاقات العامة تسقط المنشورات على العراق وأفغانستان تحت الناس ألا يقاوموا، وأن يعتنقوا الديمقراطية - وهذا مؤشر واضح على أن جانباً من هذه الحرب يخاض من خلال الإعلام، ولكن المنشورات هي أدنى الوسائل التكنولوجية المستخدمة في الحملة الإعلامية.

الأكثر من ذلك أن تقارير وكالات الاستخبارات الأمريكية تقول: إن أساليبنا في خوض هذه الحرب على الإرهاب قد زادت بالفعل من خطر الإرهاب؛ لأنها تسببت في زيادة "التطرف الإسلامي العالمي" الذي تقشى واستفحل في كل أرجاء الدنيا".² إننا نتكلم وكأن الإرهاب مرض خارج عن السيطرة، مرض يمكننا أن نكافحه بضرباتنا الجراحية، ولكنه مرض لا نستطيع أن نقهره أبدًا؛ لأننا في حربنا على الإرهاب نقوم بالفعل بصنع إرهابيين. ففي العلاج نشر المرض، إننا لا نكتفي بصنع أعدائنا عن طريق تغذية الحركة "الجهادية العالمية"، بل نصنع صورة أعدائنا بحجم أكبر من الواقع، ونجعل الصورة مفزعة تبالغ في قوتهم، وهي خطوة تتال رضاهم. كما أننا ننقل مسرح الحرب من العراق إلى العالم كله، حرب في كل مكان في آن واحد، حرب بلا نهاية منظورة، وكما يقول الرئيس بوش: "نحن الآن في الساعات الأولى من هذا الصراع بين الطغيان والحرية". فإذا كانت هذه هي الساعات الأولى، فمتى يطلع الفجر؟ ومتى نتوقع النصر الذي طال الوعد به للحرية على الاستبداد، وكيف لفزع الحرب أن يهزم فزع الإرهاب؟ وكيف للعنف أن يوئد سلامًا.

إن الخطاب الكاسح عن "قوى الشر أينما تكمن" لا بد أن يجعلنا نسأل عن المحرك الحقيقي لهذه الحرب. إن إرهابيي 11/9 قد ماتوا، ونحن نتعقب شركاءهم، ولكن من المؤكد أن لهذه الحرب اللانهائية هدفًا غير الانتقام لأحداث 11/9. إن الرئيس بوش نفسه يقر الآن بأن صدام حسين والعراق لم يكن لهما أي علاقة بالهجمات على البرجين، ولكنه يكرر قوله: إن هذه الحرب هدفها الحفاظ على أسلوب حياتنا وتأمين رخائنا، ويشير ذلك إلى وجود دوافع اقتصادية للحرب، فالحرب بالتأكيد يمكن أن تكون مربحة، ليس

للمقاولين العسكريين فحسب، بل لمقاولي الحكومة الذين يعيدون بناء البنى التحتية التي ندمرها. إن الخطاب القوي على الطرفين يخيم على قضايا اقتصادية ومادية بإشارات إلى الخير والشر تقصر الخير على الذات، وإلى المؤمنين والكفار والربانيين والملعونين. فكأن كلا الجانبين يرى الدنيا بالأبيض والأسود فقط دونما أي ظلال رمادية. إن خطاب الحرب خطاب مطلق، ومتطرف، ولا يسمح بأي غموض، فإما كل شيء أو لا شيء، إما نحن أو هم، ونحن إما رابحين أو خاسرين. ولكن هذا النمط من الخطاب المتحيز يتسم بالسذاجة والخطورة في آن معاً، فهو رؤية كونية تضع طرفاً ضد الآخر في معركة قاتلة لا نهاية لها، خاصة إذا تذكرنا أنها معركة حول مناطق ذهنية كما هي مناطق مادية حقيقية. فكيف نقيس غزو العقول أو الأرواح في الحرب على الإرهاب؟ وما مكونات أي نصر في حرب من أجل الحضارة؟

إن خطاب الأضداد - الخير أو الشر، الحرية أو الطغيان، التحضر أو الهمجية، الرابحون أو الخاسرون - يطمس مناطق التداخل التي هي أصل في الحياة ذاتها، فليس هناك خير مطلق أو حرية في حرب لا بد لوسائل العنف فيها أن تلوّث أسمى الغايات المثالية. كما أن النظر إلى العالم من زاوية الرابحين والخاسرين هو جزء من لعبة مهلكة، من شأنها أن تحافظ على استمرار عنف طرف ضد طرف إلى ما لا نهاية. وهذا النوع من الألعاب يحتاج إلى عدو، وإن لم يوجد يخلقه. أما في سياق منطق الخير في مواجهة الشر، فإننا قد ارتبطنا بحرب أبدية، حرب مقدسة، حرب لا نهاية لها. وأما مكان هذه الحرب وزمانها فهو الأبدية؛ لأن عدونا أبدي، فإذا كان العالم ينقسم إلى نحن وهم؛ فإن مفهومنا عن ذواتنا كأمة وكشعب وكأحرار وكأخيار لا بد أن يتوقف على إيجاد "هم" الذين نخوض الحرب ضدهم. إن الحرب على

الإرهاب التي يُتصور أنها حرب ضد الشر تخلق الأعداء في كل مكان، بل إن مناطق التداخل والغموض في الحياة نفسها هي التي تبعث هذا العدو.

إن هذا الكتاب تأمل في الدلالة الثقافية العميقة لبلاغة الخطاب وللمجازات التي لاتزال تنتشر وتدور في الإعلام حول الحرب على الإرهاب، وخاصة حول النساء والجنس. وهو تأمل في الأساليب المستخدمة في البث التليفزيوني الحالي، وما يعرض على شبكة الإنترنت حالياً التي تؤثر على قدرتنا على التأويل الناقد لمعنى هذا الخطاب، ولمعنى الأحداث ذاتها. وبرغم ما لحقنا في الحرب من صلة بهذا النقاش؛ فإن تركيزي ينصب على كيفية ظهور هذه الحقائق داخل الإعلام، وأسلوب انتشارها في المخيلة العامة، فالسؤال هو كيف تمثل الحقائق وتؤوّل؟ إن هذا الكتاب تأمل في معنى تمثيلات العنف في الحرب على الإرهاب، فإن الصور الإعلامية لا تفتح لنا باباً مباشراً على الأحداث ذاتها، بل إن وسائل الإعلام، كما توحى كلمة وسائل، تعني وسيطاً من خلاله يعاد تقديم الأحداث بطرق معينة. إن معنى أي حدث أو صورة ليس بالشيء الذي يكمن وراء مظهرها وينتظر أن يكشف عنه النقاب، بل إن المعنى ينتج ويعاد إنتاجه في علاقاتنا بالأحداث والصور، وإن تأويل معنى القصص والصور البصرية للحرب من شأنه أن يجعلنا نتعلم عن علاقتنا بهذه الحرب وعلاقتنا بالحرب والعنف عمومًا. ومن المدهش أننا في حالة هذه الحرب نتعلم شيئاً عن علاقتنا بالنساء والجنس.

وعن طريق السعي إلى تأويل صور من العراق وأفغانستان، يمكننا أن نبدأ في فهم صورتنا عن ذاتنا وعن الآخرين. إن ما بدا في أول الأمر أحداثاً عنف معزولة يمكن أن يُرى الآن كأعراض لثقافة عنف وموت مرتبطة بالجنس. وفي حرب تتعلق بفتح فضاء رمزي ومادي وتأمينه، من المهم أن

ندرس مصطلح الحرب على الإرهاب من زاوية رمزيته وأثره المادي، فليست الحياة بالأبيض والأسود قط، بل هي بكامل الألوان. ففي "جانبا" في جميع أنحاء البلاد تستمر المناظرات في المحاكم والقاعات البرلمانية، وتستمر دموع الثكالي على من سقط من الجنود في قاعات الجنائز في المدن الصغيرة، وتظل صيحات المحتجين المطالبين بالسلام تستدعي تلك الظلال الرمادية. إن مناطق الغموض التي نواجهها في الخبرة لا تنفك تستحث خطاب الحرب المتطرف، بل إن فزع الحرب ذاتها يتحول إلى أكبر العقبات أمام الحرب على الإرهاب. وربما لم تكن الحرب الخيرة خيرة كما نتصور - ولندكر عشرات الآلاف من المدنيين العراقيين الذين قضوا، وربما كان الخيرون يقترفون أعمال الشر - ولندكر مخالفات الجنود الذين قاموا كما عرف باغتصاب وقتل المدنيين بدم بارد، وانتهكوا أعراض الأسرى وعذبوهم. وربما لم يكن هؤلاء الرجال رجالاً، بل فتيات...

